تقنيات بناء القصة الشعبية في ماردين وفي قطر

- دراسة مقارنة -

عبدالهادي تمورتاش
جامعة يوزنجو يل/ فان – تركيا
atimurtas71@hotmail.com

خلاصة البحث

إنّ قالب الحكاية في منتهى الأهمية بالنسبة للمتلقي؛ لذا نرى أن القاص يقسم الحكاية إلى ثلاثة: الاستهلال، والحدث، والخاتمة، ولكل منها قوالب معينة شائعة بين الناس، وهذه القوالب تختلف من راو إلى راو، ومن بلد إلى بلد. إن مدينة ماردين وما حولها منطقة خصبة غنية في اللغة والأدب، وكذلك قطر التي تتمركز في قلب الخليج العربي لها أدب شعبي ثري بجميع أنواعه، فالمقارنة بين نماذج الحكايات الشعبية لكلا المنطقتين مهمة من حيث إظهار ما بينهما من أوجه الاختلاف والاتفاق في الأجزاء الثلاثة للقصة: الاستهلال، والعرض والخاتمة.

إن الاستهلال من أهم العتبات في القصة الشعبية، وله تأثير شديد في نفوس المستمعين وخاصة الأطفال منهم، وكثيرا ما يكون لهذه العتبة قوالب خاصة يتوارثها القاص من الرواة السابقين، وقد رأينا اختلافا ظاهرا بين الاستهلال في القصة الشعبية المارديئية والقصة الشعبية القطرية، والحدث هو صلب الحكاية ولا تنتظم إلا به، فالحدث هو محل غرض القصة، كما أن خاتمة القصص لا تقل شأنا من استهلالها من حيث الروعة والجمال والتأثير في نفس المتلقي، فهي تعد آخر عهد بالراوي مع المستمعين.

الكلمات المفاتيح: الحكاية الشعبية، قطر، ماردين، الاستهلال، العرض، الخاتمة.

Structural Techniques in Mardin and Qatar Folk Tales

-A Comparative Study-

Abdul Hadi Timurtash
van yüzüncü yıl university
Email: atimurtas71@hotmail.com

Abstract

The structure of the story is of great importance for the audience. Therefore, the narrator divides it in the form of introduction, development and conclusion. Every section has its own prevailing techniques. These techniques vary from region to region. In terms of folk literature, Mardin is a rich and fertile region. At the same time, located in the middle of the Arabian Gulf, Qatar is a rich region with all kinds of folk literature. It is important to make comparison between introduction, development and conclusion parts of the two region's folk tales in terms of similarity and difference.

The introduction part of the folk tale has a great importance in terms of the audience and has a great role in impressing the listeners. The introduction generally is made up of some words that traditionally became prevalent. In the development part the event is the backbone of the tale and the theme of the tale is treated in this part. The conclusion part is not less important than the introduction part in terms of beauty an aesthetics.

Key Words: Folk Tale, Qatar, Mardin, Introduction, Development, Conclusion.

توطئة

لا شك في أن للقصة الشعبية أهمية بالغة في حماية الأساليب والمفردات اللغوية في جميع لغات العالم، وكذلك لها أهمية أشد مبالغة في فهم الأعراف والعادات والمعتقدات لدى أصحابها، وفي معرفة طريقة التفكير والنظرة إلى العالم فضلا عما تحمله من مبادئ أخلاقية وتجارب بشرية ومعاني سامية ترفع من معنويات النشء، وتكوِّن شخصيته الاجتماعية والقومية والفكرية، هذا إذا استثنينا الخليعة الماجنة منها. وكذلك للحكايات أسلوب مميز يختلف عن أسلوب السرد اليومي، إذ لها مقدمات وأغراض وخواتم، وفيها شتى أنواع الفنون البلاغية من محسنات لفظية ومحسنات معنوية؛ لذا كانت هذه القصص تنتقل من جيل إلى جيل عن طريق المشافهة والحكي، وكما تكون للشعوب حكايات كذلك تكون للقبائل والعشائر والمناطق حكايات خاصة بها دون سائر من بجوارهم، ولما جاء عصر التدوين والجمع والطباعة هرع المهتمون بالأمر إلى جمع شتات هذه القصص من الأفواه وإطلاق سراحها من سجن الصدور إلى رحاب السطور، وبعد إنجاز هذه العملية أخذ المعنيون يتوجهون إلى هذا الكنز ليحلل كل من جهته مادتها ويصيغها في القالب الذي يريده.

وإن من بين هذا الكنز المخفي ما استخرجته من صدور العرب في مدينة ماردين العربية التي تقع جنوب شرق تركيا من القصص العربية الشعبية التي تشمل المفردات والأساليب العربية الخاصة بأهل تلك المنطقة المتميزة بطريقة صياغة القصة، من حيث المدخل والعرض والخاتمة مع مميزات كل على حدة. وكذلك رأيت أن هناك ثروة هائلة من القصص الشعبية في المجتمع القطري ما يمكننا من القيام بدراسة مقارنة بين قصص كلا المجتمعين؛ لذا أردنا أن نقوم بدراسة مقارنة بين بناء القصة العربية الشعبية في ماردين وبين بناء القصة الشعبية في قطر، وذلك بعد الاطلاع على نماذج كلتا المنطقتين العربيتين عسى أن نقف في النهاية على الجوانب المشتركة والمميزات الخاصة بكل واحد منهما.

وإذا كان المرجع الأول والأخير للحكاية الشعبية هو الشعب الذي يتكون من قبائل وأفخاذ، وذلك عن طريق التوارث الشفهي والنقل من جيل إلى جيل، فإن لهذا تأثيرا مباشرا في أسلوب الحكاية وطريقة إلقائها، وكذلك في مستوى مضمونها، فبعضها بسيط جداً ملائم للأطفال، ولكنه مليء بالرموز المرعبة، ويرتفع بعضها إلى مستوى التثقيف والتربية للصغار والكبار[1]، وتختلف أيضا لهجة الحكاية بين منطقة أو قرية وأخرى، ويعود هذا إلى اختلاف لهجات المناطق أو القرى، وهي ترجع إلى اختلاف الأصول القبلية التي سكنت المنطقتين منذ قرون عديدة .

إن شكل الحكاية في منتهى الأهمية بالنسبة للمتلقي؛ لذا فهو يخضع في معظم الحالات للصياغة الموسيقية؛ ذلك أن الحكاية لا تدون بل تنتقل شفاها من جيل إلى جيل، ولذلك فإن التوقيع الموسيقي يشكل عنصرا أساسيا من عناصر التشويق والإثارة، وكلما كان القاص أو القاصة قادرا أو قادرة على جذب الانتباه والتشويق، كان الصوت منفعلا بالحدث الذي يحكى على المسامع.[2]

لن نتابع في هذا البحث الطريقة البنيوية المعروفة، التي تتناول النص الأدبي من حيث الزمان، والمكان، والأبطال، والرموز، والحوافز، وذلك ليس تنزيلا من قيمتها، وإنما لأن البحث لا يسع هذا النوع من المنهج؛ لذا رأينا أن نتناول بناء القصص من حيث اختلاف أو توافق الاستهلال والعرض والخاتمة، وهو ما يمكن أن نسميه البنية الشكلية للقصة؛ وذلك كي نستطيع أن نفي البحث حقه.

(1) عبدالباري عبد الرزاق النجم، «ملامح الحكاية الموصلية»، **موسوعة الموصل التراثية** من إعداد أزهر العبيدي، مركز دراسات الموصل، الموصل، 2008، II،45.

(2) عبد الحميد اللاوند، «الحكاية الموصلية دراسة وعرض مع نماذج نصية»، **موسوعة الموصل التراثية** من اعداد أزهر العبيدي، مركز دراسات الموصل، الموصل، 2008، I،433.

إن مدينة ماردين ولاسيّما المنطقة المسماه بطور عابدين، منطقة خصبة غنية من حيث اللغة والأدب، كما أنها منطقة بكر، لم يطمثها إنس ولا جان من تلك الجوانب سوى عدد قليل جدا من الباحثين، أمثال عبدالقادر عثمان، الذي خصص ثلاثة من كتبه لتاريخ ولغة وعادات هذه المنطقة، إلا أنه – وإن خصص كتابا له باللهجة المحلمية– لم يقف على ما نحن بصدد دراسته، سوى إشارة إلى أسماء بعض الحكايات الذائعة عندهم، إذ بخل الباحث علينا بذكر أنموذج واحد منها، خلافا لما فعله في الأغاني الشعبية، وفي الأمثال، إذ دوّن نماذج عديدة من كل واحد منهما.[1]

لمدينة ماردين جغرافية واسعة متنوعة الأشكال: فيها السهول الواسعة، والجبال الشامخة، والوديان العميقة، والآكام العالية، وقد تفصل تلك الجبال أو الوديان بين قرى وقبائل وأقوام؛ فيقل الاختلاط والتعاطي بين الأهالي؛ فيولد هذا الوضع خصوصيات لدى كل قرية أو قبيلة؛ فتختلف بسببه اللهجات واللغات والعادات، وربما أنماط الحياة[2]. لذلك عندما نتحدث عن ماردين وعن لهجة ماردين لا يمكننا الحديث عن قوم أو لغة واحدة أو لهجة واحدة، كما أننا لو تناولنا لغة بعينها، فعلينا أن نضع نصب أعيننا لهجات عدة؛ لأن فيها اثنيَّات مختلفة، عرب وأكراد وسريان وأرمن ومسلمون ومسيحيون.[3] وبما أن البحث محدود بالحكايات الشعبية لعرب ماردين، فلا يهمنا شيئ يتعلق بالأكراد، أو السريان سوى جانب التأثر والتأثير من ناحية اللغة.

وكما أشرنا سابقا، عندما نتحدث عن لهجة ماردين العربية لا نستطيع أن نتحدث عن لهجة واحدة أيضا؛ لأن القبائل العربية التي استوطنت بلاد الجزيرة وديار بكر قبل الفتوح الإسلامية وبعدها كانوا ينتمون إلى لهجات عدة، وما زال أهلها يحافظون على لهجاتهم تلك. فمنهم المحلمية والماردلية والراشدية والمخاشنية والجارودية وتات، وبنو أسد وغيرهم.[4] فالمحلميون يسكنون في المنطقة المسمى بطورعابدين أو بباعربايا، والماردلية يقيمون في مركز مدينة ماردين وما جاورها من القرى، أما بنو أسد والتات فهم قبائل وقرى منتشرة في ربوع قضاء قذلتية.

وإن دولة قطر التي يحدها البحر شرقا وغربا وشمالا تقع في أرض جرداء من شبه الجزيرة العربية؛ لذا كانت مراكز الاستقرار فيها على السواحل غالبا؛ كي يرتزقوا من أسماك البحر ووسائل التجارة، وكانت هذه المراكز ممرا إستراتيجيا للقبائل العربية الرحل التي تفد؛ بحثا عن المناطق التي يكثر فيها الرعي وتتوفر فيها المياه، وذلك على مدى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.[5]

ولأسباب سياسية وصراعات إقليمية شاء الله تعالى أن تنتعش قطر اقتصاديا، إذ انتقلت التجارة إلى الزبارة.

والذي يهمنا هنا هو ما تختص به هذه القبائل من اللهجات والآداب التي أغنت، ولوَّنت الثقافة العربية القطرية، وأثرتها من جوانب مختلفة، لكن الذي يهمنا أكثر هو ما توارثته هذه القبائل من الأدب الشعبي، وورّثوها للأجيال التالية، وخاصة الحكايات التي نحن بصدد دراستها بالمقارنة مع الحكايات العربية الشعبية المارديَّة.

والذي يلفت النظر من خلال دراسة نماذج عديدة من الحكايات التي جمعت من تلك القبائل، هو أن القبائل التي شكلت الشعب القطري قد تقاربت فيما بينها بسبب وسائل الاتصال الحديثة، والاحتكاك السريع، ووسائل التعليم التي تكاد تكون موحدة؛ مما جعلها شعبا

(1) عبد القادر عثمان، **اللهجة العربية المحلمية بين الفصيح والعامي الدخيل**، الطبعة الأولى، 2011، ص. 304-316.

(2) Porry, O.H., Six Months In A Syrian Monastery, Gorgias Press, Second Edition, USA, 2004, 73-75.

(3) Veysi Günal, Mardin İlinde Kültürel Çekicilikler ve Turizm Amaçlı Kullanım Olanakları, (Basılmamış Doktora Tezi) Ankara Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü, Ankara, 2006, s. 90-92, 185-186.

(4) عبد القادر عثمان، **المحلمية هوية عربية وجذور أصيلة**، دار الملاح، دمشق، 2004، ص. 211-214.

(5) مصطفى عقيل الخطيب، الخليج العربي دراسات في الأصول التاريخية والتطور السياسي، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، 2013، ص. 23.

واحدا في اللهجة والثقافة والأعراف والعادات. علما بأن وحدة اللغة ووحدة الدين تشكلان الدعامة الأولى لوحدة المجتمع ومثالياته وأخلاقه، و أن تقاليده وعاداته مستمدة من تعاليم الإسلام، الدين الذي يعتز به المجتمع القطري.[1]

لا شك في أنه كان لهذه القبائل حكايات ومواقف وسير من قصص الغوص على اللؤلؤ، وصيد الأسماك وغيرها، وقد قيض الله عز وجل من يجمع هذا الموروث الشعبي القطري من حكيات وأغان، ويدوِّنُه؛ حفظا له من الضياع، منهم:

1- الدكتور محمد طالب سلمان الدويك، الذي فرغ جهده في جمع الموروث الشعبي القطري، فأعد كتابه (القصص الشعبي القطري) في مجلدين، خصص أحدهما للجانب النظري، والآخر لما استطاع أن يجمعها من القصص، ومن جانب آخر سار على نفس المنوال في كتابه القيم (الأغنية الشعبية في قطر).

2- خليفة السيد، الذي دوَّن 32 حكاية شعبية في كتابه القيم (قصص وحكايات شعبية)، وحكاياته عبارة عن مختارات من القصص للعبرة وأخذ الحكمة، وهي محذوفة الافتتاحات والخواتيم.

3- خولة محمد المناعي، التي استهدفت الطفل فيما جمعته من الحكايات في مجموعتها (كان يا ما كان قصص تراثية للأطفال)، التي صدرت عن المجلس الوطني للثقافة والفنون عام 2006.

4- رامي أبو شهاب، الذي ركز على الجانب الأدبي والبنيوي من الحكايات التي جمعها محمد طالب الدويك، وذلك من خلال كتابه (بنية الحكاية الشعبية القطرية النموذج والاستقبال).

5- علي عبد الله الفياض، الذي خصص الفصل الثالث من كتابه (من أفواه الرواة: مأثورات من التراث الشعبي) للقصص والحكايات الشعبية القطرية، بالإضافة إلى ذكره مجموعة متنوعة من الحكايات الشعبية والخرافية، وقد صدر هذا الكتاب عن قسم الدراسات والبحوث بوزارة الثقافة والفنون والتراث بالدوحة عام 2009.

والأمر الذي يجب ذكره هنا هو أن جميع ملاحظاتي وأحكامي واستنتاجاتي، التي وصلت إليها في هذه الدراسة مما يتعلق بالقصة الماردينية قائمة على الحكايات التي جمعتها من أهالي ماردين، التي حفظت بعضها في أرشيفي الخاص، ونشرت نماذج منها في دراسة سبق أن نشرتها، إذ لم تزل هذه الحكايات حبيسة في الصدور ولم تر النور بعد. أما الملاحظات والأحكام والاستنتاجات التي وصلت إليها في هذه الدراسة مما يتعلق بالقصة الشعبية القطرية، فهي قائمة على ما جمعه الدكتور محد طالب سلمان الدويك، في كتابه (القصص الشعبي القطري) من الحكايات الشعبية، التي أثبتها بلهجة دارجة قطرية مطعمة بفصحى مبسطة، لكنه لو أثبتها كما يحكيها القاص دون التصرف في كلماتها ولهجتها لكان أكثر علميا وأعظم فائدة، و ليس ذلك دعوة مني إلى العامية، وإنما حفظ للحكي الموروث بالنص الأصلي، و كان بإمكانه أن يبين المفردات الغريبة في الحاشية، أو بين قوسين كما فعله بين الفينة والأخرى.

1- الاستهلال:

يعد الاستهلال من أهم العتبات في القصة الشعبية، وله تأثير متين في نفوس المستمعين، خاصة الأطفال منهم، وكثيرا ما يكون لهذه العتبة قوالب خاصة يتوارثها القاص من الرواة السابقين، وقد يضيف من عنده كلمات مناسبة لمستوى المستمع أو المستمعين، وهذه العتبة قد تأخذ المستمع إلى الماضي السحيق الخرافي الذي يجذب النفوس، ويشوقها إلى المجهول الذي تبهر بمعرفته، وقد تكون دعاء للحاضرين والأجداد الماضين، أو صلاة وسلاما على الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام.

(1) خالد زيارة، لمحات من الفنون الشعبية في قطر، إدارة الثقافة والفنون وزارة التربية والتعليم والثقافة، الدوحة، 1997، ص. 9-10.

وقد رأينا اختلافا ظاهرا بين الاستهلال في القصة الشعبية المارديـنية والقصة الشعبية القطرية، وهذه نماذج من هذه الاستهلالات في كلا النموذجين:

1-1- استهلال القصة الشعبية في ماردين:

وللحكاية الشعبية المارديـنية – شأنها شأن بقية النصوص الأدبية – أسلوبها الخاص في الاستهلال، ومن خلال النظر في استهلالات القصة المارديـنية رأينا بعضهم يستند على خلفية دينية، وله مستند إسلامي مثل الدعوة إلى الصلاة والسلام على النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، أو الاعتراف بعظمة الله عز وجل وكبريائه، ورأينا بعضهم الآخر يحمل دعوة للسامع إلى الماضي الخرافي الذي لا حد لبعده، ولا معرفة لأحد به، على أن هذه البدايات تختلف من راو إلى راو[1] إذ اعتادت الحكاية الشعبية المارديـنية على أمثال هذه البدايات الآتية:

«كا في، ما كا في، أكبر من الله ما كا في»، وهذه الألفاظ (كا) محرفة عن (كان ما كان).

«كَن ما كَن يا عاشقين النبي صلوا عليه» ويجيب الحاضرون: «اللّهُمّ صل على محمد وآل محمد»

«چان (كان) واحد يگولو لو...».

«الله حي بلاد الشام، كان في جوز، كان في رمان، كان في بيضات العصفور، كان في شيخ أبو طنبور.»

«تَـقْ تورن تَـقْ، خريف (خـروف) محشي على باب السوقاق».

«كان في قديم الزمان ملك، ولا ملك إلا الله».[2]

وقد لا تكون للحكاية بداية فتبدأ بالقصة مباشرة.[3]

إن الاختلاف الذي يظهر في نطق بعض الكلمات ينجم من اختلاف المنطقة أو القبيلة التي ينتسب إليها الراوي.

1-2- استهلال القصة الشعبية في قطر

ومن خلال استعراض نماذج استهلالات القصة الشعبية القطرية، رأينا أن الكثرة الكاثرة منها إما دعوة للسامع إلى الصلاة والسلام على الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، أو دعاء وابتهال إلى الله عز وجل، يدعو القاص من خلالها لنفسه وللسامعين أن يقيهم الله من الشرور، وييسر لهم الخير في الحياة، وقد يحوي استهلال القصة حِكَما يهتدي بها السامع، أو قوانين كونية يسترشد بها، كما أن البعض الآخر يتحد مع استهلالات القصة المارديـنية، حيث يحمل دعوة للسامع إلى الماضي الخرافي الذي لا حد لبعده، ولا معرفة لأحد به، وقد اعتادت الحكاية الشعبية القطرية على أمثال هذه البدايات الآتية:

صلوا على النبي، كان....

كان يا ما كان....

صلوا على النبي، ما يانا وياكم إلا خير لقانا ولقاكم، وشر تعدانا وتعداكم، كان يا ما كان..

ما جانا وجاكم إلا خير لقانا ولقاكم، وشر عدانا وعداكم، وعاشق النبي يصلي عليه، وما جاكم إلا ..

كان يا ما كان في قديم الزمان....

صلوا على النبي، ولّي صليتو على النبي لا تنسون أبا الفضائل علي، والسوالف تروح وتيجي...

(1) من أجل الاطلاع على مقدمات وخواتيم القصص في مختلف المناطق العربية لينظر: كامل إسماعيل، «تقنيات المقدمة والخاتمة في السرديات الشعبية» **مجلة الثقافة الشعبية**، العدد: 14، المنامة، 2011، ص. 23-35.

(2) عبد الهادي تمورتاش، «الحكاية العربية الشعبية في ماردين دراسة تحليلية»، **مجلة دراسات الإماراتية، العدد:**39، 2014، ص. 151؛ أحمد زياد محبك، **حكايات شعبية**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999، ص. 635.

(3) للمقارنة مع نماذج أخرى انظر: محمود شكيب أنصاري وعبد العزيز حمادي، «نظرة تحليلية على الحكايات الشعبية العربية في خوزستان»، http://alfalahia.blogfa.com/post/403 (Erişim: 25.06.2014)

كان يـا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان...

يحكى في قديم الزمان أنه كان....

صل علـى النبـي، اللهـم صل عليـه، ما جـاك إلا ....

السوالف فنون فنون، والمسلوف يشرب غليون، السوالف تسير وتيجي، ولا فائدة إلا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم...

يانـا وياكم إلا خـير لقانا ولقاكـم وشر تعدانا وتعداكـم، من له نبي يصلي عليه.. الجميع، اللهم صل وسلـم وبـارك علـى سيدنا محمـد، في وقت مضى عاش ...

في قديم الزمان كان يوجد ..

هناك اثنان من الأصدقاء

حصلـت هذه السالفة في قديم الزمان وأبهرت العيون والأذهان، وتقول هذه الحكاية...

إلى هنـا هـاك الواحد، والواحـد الله في سماه العالي..

غـضة فـضة إلّي مـشى على خدهـا البرغوث قطة(قـضه) تهيـل وتميـل وتجعل القلـب غاشيا ودليـل، والّي يحـب النبي يصلي عليـه (الجميع، اللهم صل ععليك يا رسول الله)..

كان – الله يسلمـك – ... (عنـد ذكـر أمـر مكروه).

صلـوا علـى النبي، حدث في فجـر بعض الأيام قبل مائة سنة أن ....[1]

2- العرض أو الحدث

الحـدث هو صلـب الحكاية، ولا تنتظـم إلا به، حيث قـد يستغنى عن الاستهـلال أو الخاتمـة إلا أنه يستحيل الاستغنـاء عـن الحـدث؛ فالحـدث هـو محـل غـرض أو أغـراض القـصة، كما أنـه مسعى الحوافـز بما فيها المشتركـة والحرة منها، والحـدث في نفس الوقت الحقل المنبت للوظائف التي تقوم بها الشخصيات، التي تعد من الأجزاء الأساسية للحكاية. وبمـا أننا نمضي لاستظهار البنـاء الشكلـي للنموذجين فلـن نحيد عنـه، وعلى هذا المنهـج نحـاول أن نضع البصمـة على الجانـب الشكلي لبناء الحكاية الشعبية المارديـنية والقطرية.

الأمر الأول: هو أن الحدث قائم على أسلوب الزمن الماضي والخيالي الخـرافي في غالب حكاية النموذجين، ويتـم ذلك بـوصف الزمن بالقدم، أو بقـول «في يوم من الأيـام»، أو بذكـر أشخـاص خرافية خيالية مثـل الغول والجان والعمالقة والأقزام وغيرها، أو بذكر شخصيات دينيـة كبعض الأنبيـاء والملائكة، والأوليـاء والصالحين الذين يعتقد انقراضهم مما يدل على حدث وقع، ومضى في زمن سحيق.

الأمـر الثـاني: هو أسلـوب الحوار، الـذي لا ينقطع طـوال سرد الحدث، فلا تخلو حكاية –أبدا– من أسلوب الحـوار الذي يجذب السامع أو القـارئ إليه، ويجره إلى متابعـة الحدث من أولـه إلى آخره، مما يجعلـه سلسلة حلقـات مرتبطـة ببعضها، بحيـث إنّ حـدَث أي خلل في إحـدى الحلقات اختلت سائر الحلقات، وانتشرت مبثوثة مـن سلكها، ويتـم أسلوب الحـوار بصيغ عديـدة، مثل: «قال»، «سأل» ، «أجاب» وغيرها.

الأمر الثالث: هو الاستفادة من فن الأخذ والاقتباس مـن الأمثـال السائـرة، أو الأبيات الشعريـة مما يضفي علـى الحكاية لونا جديدا من التعابير والمعاني؛ فيزيدها رونقا وجمالا كما يثريها لطافة ورشاقة، وهذه الخاصية وإن كانـت قليلـة إلا أنها وظفـت في عدد لا بـأس به من

(1) محمد طالب سلمان الدويك، **القصص الشعبي القطري**، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية. 1984. مج. 1. أوائل الحكايات.

الحكايات؛ فعلى سبيل المثال نجد في حكاية ساري العبد الله المارديني هذه الأبيات:

شحّن مايّ الرواي ما ظلّ قير ماي جود
چيف (كيف) اِترجّى العبد والرب ماجود (موجود)[1]

وتوظيف الأبيات الشعرية في الحكايات القطرية أكثر مقارنة بالحكايات المارديني، نذكر منها ما ورد في حكاية «المرأة الذكية» هذين البيتين:

يا لولوا يا لولوا في بيانا سبعة نجوما
اعقل هدورا واركب زهوما في بيتنا سبعة نجوما[2]

وكذلك وظف الشعر في حكاية «حب من طرف واحد» بهذه الأبيات:

يا زين اللي بخدوده نقاريش
الحكم حكم الله وأمرك على الرأس
إن ردتني خيال فاروا المراييش
وإن ردتني حطاب فاقبضيني الفأس
لا يغرك الفرخ في صفة الريش
طير الحبارى أريش العين جرناس[3]

يندر استخدام الأمثال في النماذج التي بين أيدينا من الحكايات المارديني والقطرية، و مع أن الحكايات مملوءة بالحوافز الدينية والأخلاقية، ومع أن الكثرة الكاثرة منها تنطوي على أغراض دينية بحتة، إلا أننا لم نعثر فيها على آيات قرآنية، أو أحاديث نبوية، ويمكن تفسير هذه الظاهرة أنه بسبب تعظيمهم وتنزيههم لها من أن تذكر مع الحكايات التي تروى في أجواء من اللهو والمرح.

3- الخاتمة

إن خاتمة القصص لا تقل شأنا من استهلالها من حيث الروعة والجمال والتأثير في نفس المتلقي؛ فهي تعد آخر عهد بالراوي مع المستمعين؛ لذا يحرص على أن تكون طريفة لاصقة بالذهن لها رسالة أخلاقية، أو فكاهة تمتع السامع لتكون مسك الختام، وكثيرا ما يكون لخواتيم القصص قوالب خاصة يتناقلها الرواة ممن سبق من آبائهم وأمهاتهم أو أجدادهم أو جداتهم كما هو الشأن في استهلال القصص.

وقد رأينا أوجه اختلاف واتفاق متعددة بين الخاتمة في القصة الشعبية المارديني والقصة الشعبية القطرية، وهذه أمثلة من هذه الأوجه في كلا النموذجين:

3-1- خاتمة القصة الشعبية في ماردين

ينهي القاص المارديني حكايته في الغالب بأمنية تبدأ بحرف الامتناع (لو)، تعبيرا عن مشاعره التي يرغب في أن يكرم السامعين، ولو بشيء من الحمص، أو الزبيب، أو غيره من المكسرات المسليات التي طالما اعتاد الناس إكرامها في مثل هذه الأمسيات والجلسات، ولا يخلو بعض الخواتيم من حكم وأمثال جارية، وقد تكون الخاتمة طريفة، فيها شيء من اللغز لا يفطنها إلا الأذكياء. وقد اعتادت الحكاية العربية الشعبية المارديني على الخواتيم الآتية:

«وعاشوا عيشة سعيدة»

«تعيشو وتسلمو»

«لو بيتنا قريب كا جبتلكم طبق حمص وطبق زبيب»

«لو بيتنا قريب كا جبت ثلاثة رمّانات واحدة لي واحدة لأم علي والثالثة لحكاية الحكاية»

«ولو كان بيتنا قريب كان جئنا لكم بحمل زبيب»

«كنا عدكم، وجينا، لو بيتنا قريب كان عطيتوكم ثاث حفنات زبيب حفنِى إلي، حفني لفلانة (تسمي باسم نفسها) حفني لحكّاية الحكي!»

«كِل حِيل يِزول، وكِل مِنصوب مِعزول، وكِل مِيت مسول».

(1) عبد الهادي تمورتاش، «الحكاية العربية الشعبية في ماردين دراسة تحليلية»، ص. 156.
(2) الدويك، القصص الشعبي القطري، ص. 46.
(3) الدويك، القصص الشعبي القطري، ص. 42.

وكثيرا ما تكون نهاية الحكاية الماردينية هذه الجملة: « توته توته خلصت الحدوته».[1]

وقد لا تكون للحكاية نهاية خاصة؛ فتنتهي حيث ينتهي العرض المطلوب.

3-2- خاتمة القصة الشعبية في قطر

إن أكثر نماذج خواتيم القصة الشعبية القطرية تعبير عن أسف القاص الذي بذل جهده في عرض القصة ونقلها للسامعين، الذين لم يكرموه شيئا مقابل هذا الجهد، وذلك بخلاف القاص الماردينـي الذي كان يرغب في أن يكون بإمكانه هو إكرامهم من عنده، وقد ينهي القاص القطري قصته بدعاء للسامعين ولوالديهم، وقد تنتهي القصة بضرب مثل سائر، هذا بالإضافة إلى اختيار القاص أبياتا ذات مغزى مناسبة مع القصة.[2] وقد اعتادت الحكاية العربية الشعبية القطرية على الخواتيم الآتية:

ورحنا عنهم وبينا حتى شي ما عطونا...

ورحنا عنهم وبينا حتى حاجة ما عطونا...

ورحنا عنهم وبينا حتى خاتم مكسور ما عطونا...

وجيت من عندهم ولا أعطوني شيء..

وجينا من عندهم وما حصلنا شيئ...

وحملت وكملت وفي اصبيع الصغير دمّلتْ..

وهني وهناك تخلص هالسالفة..

ورجعنا من عندهم ولا عطونا شيئ ..

وخلصت ما عطوني شيئ..

وجيت من عندهم ما عطوني شيئ، وكسوهم الشيوخ وأنا ما عطوني من كساويهم، وكملت وحملت..

الخير لنا والشر لهم ..

وكملت وحملت وفي صبيع الصغير دمّلتْ..

ورحنا عنهم وجينا..

إن مكر النساء لتزول منه الجبال..

أبوّي وأبوك وأمي وأمك، عساهم عمر طويل، رحت وبيت وما عطوني شيء..[3]

وقد تكون خاتمة الحكاية الشعبية القطرية أبياتا شعرية تختلف بين الطول والقصر، لها علاقة مباشرة بمغزى القصة، وغالبا ما لا يعرف قائلها، وذلك مثل:

1- أصل المكارم للعرب والمواجيب
مع الكرم فيهم شجاعة وشيمة
الطيب للطيب ويشتاق للطيب
وأصل الردي خبث دروبه وخيمة
أنظر لمطلوب نزح الأجانيب
لوهو بعيد الدار زاره غريمه
شاف الخطر غير أنقذه عالم الغيب
وأرخص بروحه يوم شاف الهضيمة
هذا الشجاع اللي منزّه عن العيب
حرمة غريمه عدّها من حريمه[4]

2- لا تهفي الظن للنسوان
من طاوع البيض يهفنه
عينت ضيف لابن شعلان
موته جزع من سبب هنّه
عشيقته حافها الديان
أتلي حياته هاك الونّه[5]

وكما يظهر من خواتم قصص النموذجين فإن

(1) تمورتاش، «الحكاية العربية الشعبية في ماردين»، ص. 151؛ محبك، حكايات شعبية، ص. 595.

(2) للمزيد من الوقوف على ماهية بنية الحكاية الشعبية القطرية لينظر: رامي أبو شهاب، بنية الحكاية الشعبية القطرية النموذج والاستقبال، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، 2015.

(3) الدويك، **القصص الشعبي القطري**، مج. 1، ص. 14، 21، 23، 48، 49، 55، 60، 63، 66، 86، 101، 136، 159، 175، 213.

(4) الدويك، **القصص الشعبي القطري**، مج. 1، ص. 258.

(5) الدويك، **القصص الشعبي القطري**، مج. 1، ص. 290.

القـاص القطـري ينتظر مـن المتلقـين أن يكرموه جـزاء ما قـص عليهـم مـن القـصص، إذ ينهي القـصة غالبا بهـذه الخاتمة القـصيرة: «ورحنا عنهم وبينا حتـى حاجة ما عطونا»، بينما القاص الماردينـي يتمنـى أن يكـون بإمكانـه أن يكرم هو المستمعـين جـزاء استماعهـم إليـه، واجتماعهم حوله، وإيناسهم له، وذلك بقوله في نهاية القصة: «لو بيتنـا قريـب كا جبتلكـم طبق حمـص وطبق زبيب»

4- نموذج من حكايات ماردين

مشيطة

«كا مـا كا يـا عاشقـين النبـي صلـوا عليه. الرسول أُوّ أو جبريـل فتّوا فوق قبر. الرسول شم ريحـة طيبـى (طيبة) مـن هاك القـبر. جبريل قـال للرسول هالْريحى من هالْقـبر تيجي، أُو في القـبر مشيطة، أُو أولادا متفونينَّه. قصتْها هاكَي هاكَي.

مشيطـة في وقت فرعون كَتْ (كانت) موظفة في تمشيط شِهفِتْ بِت (بنت) فرعون.

يوم الويحد مشيطة كَتِمشّط (كانت تمشط) شهفـت بت فرعـون المِشط وِقئ (وقـع) من إيدا كبّـت لـلأرض وقـت تترفـا (ترفع) المـشط كَتْ (قالـت) بـسم الله. أُو مشيطـة كَـت مؤمنـوى أُو شهفـت بت فرعون كَت لمشيطـة قَي (يا تُرى) لـك إله غـير أبوي؟ مشيطة كَـت الَّا (قالت لها) ربي أُو رب أبوك اللّه وى. بت فرعون كَت لمشيطة: رِدّي من هي كلامك، إيكون (إن يكن) مو تِردّين من كِلامك تِأشكَيك لأبوي.

مشيطة مو رِجعت من قولا.

بـت فرعون راحت كَـتْ لأبـوّا المِثلى. فرعون صحّ مشيطـة قالِـلّا ارجعي من دينـك. مشيطة ما قبلِـتْ فرعـون قالِلّا إيكون مـو تِقبلين تِأقتلك أُو أقتـل أُولادك. مشيطة قارْتلخْ ما رِدّت من دين الحـق. فرعون زَد غزپ (غـضب). إپشان إورّح (يرمـي) مشيطـة أُو ولـدا حظر (حـضر) ماي إكْسير غلِيْ لِكـون يِقُـو (يقعوا) في هـاك الماي الغلي لحمتـو كالتِّتن فرِّق من عظمو. فرعون قبِل ورّح (رمـى) أولادَا ويحد بويحد أُو مشيطة بعينا أرتْ ولـدا في إيك الماي لِحمتِن تِنفرق من عظمِن أُو إيموتـون قارْتلِخ ما رِدّتْ مـن دينا أُو كتْ لا إله إلا اللّه أُو ما فزِعـت مـن تهديـدة فرعـون إسِّرا جيـت لابنا اللي هوى في القونـداخ تِورِحو في المي الغلـي. البيبك إتكلم أُو قـال لأمّو يا إمّي اصبري عـذاب الآخِـرِى أَشْدَدْ إمِنْ عـذاب الدنياي إنتِ على حق تِلا تِرجعين من طريقك.

مشيطة كَتْ لفرعون أَريد منِّك شِي بعد موتنا: تِتْلِـمْ عظامنـا أُو تِتْتِفِتَّـا . فرعون قـال هلطلبك تِأجيبـو. الّي صار أورح مشيطـة أُو ابنـا الإزغيّر (الصغـير) في الماي الغلي مشيطة أُو ولدا ماتوا. شاهدين الرسول في إلسفرو الإسرا شِي الّي شم ريحـة أطيـب مِلمسك كَـنْ ييجي مـن موظع الّي دفنوا مشيطة أُو ولدا. تعيشو وتسلمو.

التحليل

معجـزة الإسراء والمعـراج التـي أكـرم الله بها رسولـه محمدا صلى الله عليـه وسلم شكلت وما زالت تـشكل معينا فياضا للشعـراء والأدباء والواعظين، كلٌ ينشد فيها ضالته. أصبحت هذه المعجـزة عـبر التاريخ مـوضوع وعـظ الواعظين وقـصة القاصين وإلهاما للشعـراء والأدباء، زيد فيها الكثير وبولغ فيها أشد المبالغة.[1] لكن مهما يكن الأمر كل ما قيـل وقال يعتبر إبداعا أدبيا له قيمته، ومكانته حتى لو كان وضعا وتخريفا.

(1) وقد أعد مؤخرا جمال مقابلة دراسة شاملة لحادثة الإسراء والمعراج وتجلياتها في الأدب العربي. للتفاصيل انظر: جمال مقابلة، تجليات الإسراء والمعراج في النثر العربي، دار أزمنة، عمان، 2010.

يمكن لنا أن نتناول حكاية مشيطة من هذه الزاوية، فهي حكاية دينية شائعة بين أهالي ماردين قائمة على الثبات على الإيمان بالله تعالى وإن كلف ذلك هلاك النفس والأولاد.

والحكاية بهذا النص الذي بين أيدينا حكاية كاملة الأركان، فيها مدخل وموضوع وخاتمة، إذ تبدأ بمحاولة معرفة مصدر الرائحة الطيبة التي كانت تفوح في أثناء زيارة جبريل والرسول محمد صلى الله عليه وسلم للمقبرة، وتستمر بالتعريف بمشيطة الخادمة في قصر فرعون وما نزل بها وبأولادها عندما شعر فرعون بإيمانها ، وتختتم بالوصول إلى معرفة مصدر الرائحة الطيبة، التي كانت تفوح من المكان الذي دُفِنت فيها مشيطة وأولادها، علما بأن «مشيطة» محرفة عن «ماشطة»

لعنوان الحكاية طابع اسمي، فمشيطة اسم علم لشخصية تعمل خادمة في قصر ملك جبار متأله، أصبح رمزا للظلم والكبرياء، بالرغم من أن مشيطة شخصية ضعيفة اجتماعيا إلا أنها قوية دراية وإيمانا، صمدت تجاه قسوة هذا المتأله الذي لا يرقب في خدامه إلّا ولا ذمة.

مشيطة هي شخصية مركزية (محورية) في الحكاية، وهي شخصية إيجابية تعد رمزا للصمود والإيمان والصدق والإخلاص. أما بنت فرعون شهفت فهي شخصية مقلدة تابعة ألّهت أباها، وهي شخصية سلبية في الحكاية؛ إذ إنها قابلت معروف مشيطة لها بالنكران، وشكتها لأبيها، حتى تسببت في قتلها وفي قتل أولادها. وشخصية فرعون في الحكاية شخصية في منتهى القسوة، حتى على أضعف خدامه؛ مما يشير إلى الذلة والدناءة التي هو فيها.[1]

(1) وللمزيد فلينظرإلى: تمورتاش، «الحكاية العربية الشعبية في ماردين»، ص. 154-155.

5- نموذج من حكايات قطر

لغز اليهودي

صلوا على النبي، كان في سبع بنات عم، عندهن أعياد وأفراح، ولهن بساتين وعندهن حوض كبير، وكانت لهن ابنة عم جميلة جدا، تقول للقمر: قومْ وأنا أقعد مكانك، يتمناها جميع الناس. المراد. خرجت البنية مع البنات تتسبح، وكان البستان ليهودي، وبينما هن في البستان، أظلم الليل عليهن، ورجعت البنات إلا هي بقيت ادّوّر انعالها (حذاءها) اللي سقط في البركة، وشافها راعي البستان، وعلى رأسها الرداء الأحمر، وكان يهوديا فأخذها وسرقها، وبغى منها الكلام والحديث، ولكنها لم تجبه، وفي الصباح أخذت تفكر في حيلة كي تذهب، فوقفت على الدريشة (النافذة) ورأت بنات من صديقاتها؛ فقلن لها: أنت فين أهلك يدورونك؟ فقالت لهن أنا عند اليهودي، وفرشت رداءها على الدريشة ورمته على الناس، ثم رمت نفسها من الدريشة، ولما يا (جا) اليهودي لم يعينها (يجدها)؛ فتحسر، وراح حق أبوها، وكان في مجلس كبير، وقال له: سوف أحكي لك لغزا إذا حليته أعطيك كل أملاكي، وإذا لم تحله آخذ كل أملاكك، فقال الوالد: قل ما عندك. قال: بفكرك في من طار، واستطار، وخلت مهايرها على الطوقان؟

احتار الوالد في حل اللغز، وأعطاه مدة خمسة أيام، وأخذ الرجل يفكر أياما وليالي في حل اللغز، واستغربت البنت من الوالد، وطلبت منه أن يخبرها باللي شاغله؛ فقال لها القصة اللي جرت مع اليهودي، فضحكت، وقالت هذا بسيط وقالت: قل له: لو ما طار واستطار كان تمت عمايم أبوها في مجلس الرجال. وفرح أبوها بالحل، ثم حضر اليهودي في الموعد المحدد

مبكرا وهو مستأنس ومبسوط، ولما شاف بشاير الفرحة على الوالد استغرب، وقال له: وش الجواب؟ فقال له الوالد الجواب، فأغمي عليه، وأخذ الوالد الحلال والمال. وجيت من عندهم ولا عطوني شيء![1]

التحليل

تأخذ البنات والأخوات والأنثى بشكل عام حظا وافرا من بين الحكايات الشعبية، وكثيرا ما تكون البنت الجميلة الحسناء هي الشخصية المحورية فيها، إذ تواجه أنواعا من البلاء والمصائب كما هي الحال في هذه الحكاية، وكثيرا ما تكون الشخصية السلبية من الظَّلَمة والجبابرة، أو ممن لهم شهرة في الخداع والحيل ونقض العهد والغدر مثل اليهود، وتكون الدائرة في غالب الأمر على الشخصية السلبية.

والحكاية بهذا الشكل الذي دونت حكاية كاملة الأركان، فيها مدخل وموضوع وخاتمة، إذ تبدأ بالحديث عن البنات السبع اللاتي يعشن في غنى وثراء، لهن كل فرص السعادة والسرور، وبينهن فتاة تحاكي القمر في جمالها، وبعدما سبحن في حوض في بستان يهودي تخلفت الفتاة الجميلة عن قريناتها؛ بسبب البحث عن حذائها الذي ضاع، ولكن عندما رآها اليهودي أخذها عنوة إلى بيته للتحدث معها، لكنها رفضت ولم تستسلم له، وخرجت أمام النافذة صباح اليوم التالي فرأت بعض صديقاتها، واستعانت بهن في النزول منها على حين غفلة من اليهودي، والتحقت بأهلها الذين كانوا يبحثون عنها، وتستمر الحكاية في اللغز الذي أراد اليهودي أن يوقع به والد الفتاة؛ ليستولي بخداعه على أملاكه وأهله بما فيهم الفتاة الجميلة، ولكن الوالد نجح في حل اللغز بفضل بنته، وأصبح جميع أملاك اليهودي وأهله ملكا لوالد تلك الفتاة.

يأخذ عنوان الحكاية بالسامع إلى مكر اليهود الذين يُعتقد أن عندهم علوم الأولين والآخرين، وأن لديهم حلا لكل لغز، وهكذا كان يعتقد يهودي هذه الحكاية بأن اللغز الذي عنده ليس لأحد قدرة على حله؛ لذا تحدى والدَ الفتاة مقابل جميع أملاكه وأهله، وهو واثق من نفسه، لكن غباءه أنْساه أن بطلة اللغز كانت بنته، وعندها الحل الحاسم، علما بأن اليهودي يحضر في المتخيل الشعبي الحكائي بوصفه أنموذج اللؤم والخسة والغدر والجشع.[2]

الفتاة الجميلة شخصية إيجابية، وهي عفيفة لم ترضخ لضغوط اليهودي الغادر الذي لا يرعى حقوق جاره، وهي ذكية عرفت كيف تنجي نفسها من الحبس، وتخلصها من الخطر المنتظر، ويقظة تنتبه لما يجري حولها، ففطنت لحال والدها، واستفسرت وضعه، فعرَّفته حل اللغز، فأنقذت بذلك نفسها وأهلها، وأكسبتهم أملاكا كبيرة.

خاتمة البحث:

من خلال هذه المقارنة بين أجزاء الحكايات الشعبية المارديني والقطرية الثلاث من حيث التقنيات المتبعة في كل من الاستهلال والعرض والخاتمة رأينا أوجها عديدة من الاتفاق والاختلاف من أهمها ما يلي:

- يأخذ الدعاء والصلاة على النبي محمد ﷺ حيزا كبيرا في استهلالات الحكاية الشعبية القطرية، في حين أنَّ الحكاية الشعبية المارديني يطغى عليها الاستهلال الشعبي التقليدي (كان في ما كان في).

(1) الدويك، القصص الشعبي القطري، مج. 1. ص95

(2) ضياء عبدالله الكعبي، «الحكاية الشعبية في منطقة شبه الجزيرة العربية والخليج العربي»، مجلة الثقافة الشعبية، العدد: 13. المنامة. 2011. ص. 45. (26-47)

- يتمنى القاص المارديني في خاتمة الحكاية أن يكون بيته قريبا حتى يكرم المستمعين بشيء من الزبيب، في حين أنَّ القاص القطري يشكو من المستمعين إن لم يكرموه ولو بكسرة خبز.
- قد وظف الشعر في حدث القصة في كلا النموذجين، أما في الخاتمة فلم يوظفها القاص المارديني، ووظفه القاص القطري في عدة حكايات.

مراجع البحث:

1. أحمد زياد محبك، حكايات شعبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999.
2. جمال مقابلة، تجليات الإسراء والمعراج في النثر العربي، دار أزمنة، عمان، 2010.
3. خالد زيارة، لمحات من الفنون الشعبية في قطر، إدارة الثقافة والفنون وزارة التربية والتعليم والثقافة، الدوحة، 1997.
4. رامي أبو شهاب، بنية الحكاية الشعبية القطرية النموذج والاستقبال، وزارة الثقافة والفنون والتراث، قطر، 2015.
5. ضياء عبدالله الكعبي، «الحكاية الشعبية في منطقة شبه الجزيرة العربية والخليج العربي»، مجلة الثقافة الشعبية، العدد:
6. عبد الحميد اللاوند، «الحكاية الموصلية دراسة وعرض مع نماذج نصية»، موسوعة الموصل التراثية من اعداد أزهر
7. عبد القادر عثمان، اللهجة العربية المحلمية بين الفصيح والعامي الدخيل، الطبعة الأولى، 2011.
8. عبد القادر عثمان، المحلمية هوية عربية وجذور أصيلة، دار الملاح، دمشق، 2004.
9. عبد الهادي تمورتاش، «الحكاية العربية الشعبية في ماردين دراسة تحليلية»، مجلة دراسات الإماراتية، العدد:39، 2014.
10. عبدالباري عبد الرزاق النجم، «ملامح الحكاية الموصلية»، موسوعة الموصل التراثية من إعداد أزهر العبيدي، مركز
11. كامل إسماعيل، «تقنيات المقدمة والخاتمة في السرديات الشعبية» مجلة الثقافة الشعبية، العدد: 14، المنامة، 2011،
12. محمد طالب سلمان الدويك، القصص الشعبي القطري، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية، 1984.
13. مصطفى عقيل الخطيب، الخليج العربي دراسات في الأصول التاريخية والتطور السياسي، وزارة الثقافة والفنون
14. 13، المنامة، 2011، (26 - 47)
15. 23 - 35.
16. دراسات الموصل، الموصل، 2008.
17. العبيدي، مركز دراسات الموصل، الموصل، 2008.
18. والتراث، الدوحة، 2013.

مراجع أجنبية

1. Porry, O.H., Six Months In A Syrian Monastery, Gorgias Press, Second Edition, USA, 2004, 73-75.
2. Veysi Günal, Mardin İlinde Kültürel Çekicilikler ve Turizm Amaçlı Kullanım Olanakları, (Basılmamış Doktora Tezi) Ankara Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü, Ankara, 2006, 185-186.

مواقع إلكترونية

1. محمود شكيب أنصاري و عبدالعزيز حمادي، «نظرة تحليلية على الحكايات الشعبية العربية في خوزستان»، http://alfalahia.blogfa.com/post/403 (Erişim: 25.06.2014)